أ فريد تابتي

شعر الصّعاليك

مقدّمة:

قد يكون الصّعلوك هو أوّل من نادى بضرورة إعادة النّظر في الأسس التي قام عليها المجتمع العربيّ قبل الإسلام، والتي لم تكن أبدًا قادرة على تحقيق العدالة الاجتماعيّة التي يطمح إليها كلّ فرد في المجتمع. كان الصّعلوك لسان حال المقهورين والمنبوذين - وما أكثرهم - في مجتمع قائم أساسًا على القوّة والنّفوذ والمال، وهذا ما جعل العلاقات العامّة بين القبائل العربيّة علاقات تناحر وحروب وإغارات مستمرّة ودائمة، وجعل قائمة ضحاياها مفتوحة لا تريد الارتواء.

لقد وجد العرب أنفسهم في مجتمع يخضع بالوراثة، لمجموعة من القيم، لا يهمّها الإنسان بقدر ما يهمّها الفرد وما ملكت يدُه، وتشكّلت مع الزّمن طبقات ما انفكّ البعدُ بينها يزداد، فملكت طبقةُ القلّة ما يؤهّلها للسّلطة والجاه، ووجدت طبقة الأكثريّة نفسها تابعة؛ لا تملك نفسها، ولا تملك ما تدافع به عن نفسها، وفيها تشكّلت مع الأيام معطيات تدلّ على التّبرّم وعدم الرّضا، بل العصيان والثّورة على الفكر الموروث، والواقع المؤلم، والنّظام السّياسيّ الذي وضع نفسه وحاشيته فوق الجميع.

كان ظهور الصّعلوك علامة على أنّ القهر ليس دائما مطيّة للرّضوخ، فقد يصبح علامة على اشتغال العقل، وعلى الرّغبة في التّغيير الإيجابيّ، وعلى الوعي الذي به تتطوّر المجتمعات، وفي المقابل فهو علامة على أنّ (الأسياد) الذين امتلكوا مقوّمات السّيادة بالوراثة، قابعون في تحجّرهم وجمودهم خارج كلّ أشكال اشتغال العقل، لا يهمّهم سوى الحفاظ على الظّروف القائمة، ليستمرّ الوضع على ما كان عليه. إن ارتباط الوعي بالصّعلوك، والنّهج الذي نهجه للتّغيير، تجسيدا لوعيه، دليل على أنّ بلوغ غايته ليس بالأمر الذي يتحقّق بين عشيّة وضحاها، وقد يتطلّب إضافة إلى الوقت التّضحية بالغالي النّفيس، وما مغازلة الصعلوك للموت في شعره سوى دليل على أن المهمّة ليست سهلة أبدًا.

التّعريف بالصّعلوك / الصّعلكة:

تتّفق أغلب التّعريفات التي قدّمتها كتب تاريخ الأدب، والمصنّفات الكبرى، والمعاجم اللّغويّة على ربط مفهوم الصّعلكة بالفقر، ف(الصعلوك في اللغة: الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل، إذا كان كذلك، قال حاتم الطائي:

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى ... فكلا سقاناه بكأسيهما الدهرُ)[1]

والصّعلكة (هي الفقر المجرد من المال والقيمة الاجتماعية معا)[2]، والأمر طبيعيّ؛ فالفقر في مجتمع طبقيّ، أسياده من ذوي المال والجاه والسّلطة، لا يقيم وزنا لفقير لا يملك قوت يومه،

---

[1] - لسان العرب مادة صعلك.

[2] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجريّ، رسالة دكتوراه، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1431 / 1432هـ، ص: 31.

(الصعلكة إذن – في مفهومها اللغوي – الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهر ضامرا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمّنهم)[3]. فإذا كانت فئة كاملة في مجتمع مّا مسمّاةً باسم مستوحى من الفقر، فذلك يدلّ قطعا على الظّلم الاجتماعيّ الذي تعاني منه هذه الفئة، وانعدام القيم الاجتماعيّة والسّياسيّة التي من شأنها أن تقود إلى العدالة، (وعلى الرغم من أن النظام القبلي في ذلك العصر تكيّف مع البيئة الصحراوية والاجتماعية إلى حد ما، إلاّ أنه لم يحقق لعدد كبير من أفراده التوازن الاجتماعي الذي افتقدوه، ولم يقرّب ما اتّسع من فجوة بين الأقوياء والضعفاء، والأغنياء والفقراء، مما كان له الأثر الكبير في خلخلة البنية الاجتماعية في هذا العصر)[4]، ليس غريبا إذن، إذا كان الشعراء الصعاليك قد (ثاروا على هذا المفهوم [الصّعلكة المرادفة للفقر] تحقيقا لذواتهم وتشبثا برؤيتهم، وكانت لهم وسائلهم في سياق الصراعات المتجددة من أجل إثبات هذه المكانة المغايرة)[5]. ويؤكّد يوسف خلّيف هذا المفهوم للصّعلكة، فيقول: (وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذي يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يدا واحدة، أو هو - بعبارة أخرى – الفقير الذي يواجه الحياة وحيدا، وقد جرّدته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يستطيع أنْ يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها؛ فالمسألة إذن ليست فقرا فحسب، ولكنها فقر يُغَلِّقُ أبواب الحياة في وجه صاحبه، ويسد مسالكها أمامه. هذا هو التعريف اللغوي للكلمة [الصعلوك] كما نراه)[6].

ولكنّ معنى الصّعلكة عند البعض قد تجاوز المعنى اللّغويّ المرتبط بالفقر، إلى معنى اجتماعيّ أوسع، وهنا (نشير إلى أنّ أبا زيد القرشي، صاحب جمهرة أشعار العرب، قد تنبّه إلى أنّ هناك جانبين لهذه المادة، واستطاع أنْ يميّز بينهما تمييزا دقيقا واضحا عيث يقول: (الصعلوك الفقير، وهو أيضا المتجرّد للغارات)، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعي بالتجرد للغارات يجعلنا نسجّل لهذا العالم المتقدّم على أصحاب المعاجم التي بين أيدينا أنّه كان أدق من عرّف معنى الصعلوك)[7]، بمعنى أنّ الصّعلوك الفقير الذي لا يملك شيئا حتّى قوت يومه، هو نفسه الصّعلوك (المتجرّد للغارات)، الذي أوقف حياته على الغارات، فلم يقم بسواها، فكانت عنده أداةً لكسب عيشه، وإعالة أسرته، وبالتّالي، فـ(الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء، ولكنهم طوائف من قطاع الطرق كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية، ينهبون من يلقونه في صحرائها

---

[3] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 22، 23.

[4] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 32.

[5] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 31.

[6] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 23.

[7] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 28.

الموحشة الرهيبة، ويتلعّبون به، ويتخطّفونه، ويأكلون ماله)[8]، وبذلك قد يخرجون من وضع المقهورين والمظلومين وضحايا المجتمع، إلى وضع ممارسيْ القهر والظّلم على غيرهم، بما يخلّفه ذلك من ضحايا. يُخرج هذا التّعريف الصّعاليك من دائرة ضحايا (القانون) الجائر، والقيم السّائدة الظّالمة، ليضعهم في دائرة (الخارجين على القانون)، وممارسيْ العنف ضد الآخرين، ولكنّ هذا التّعريف، ورغم هذه الصّورة غير الجميلة التي قدّمها للصّعاليك، فيبدو أنّ الفقرَ الذي ارتبط بهم حقيقةٌ لا يُمكن أنْ تُنكر، وإذا كان هو الذي دفعهم إلى التّجرّد للغارات، وقطع الطّريق، فذلك تبرير طبيعيّ لمعاناة لم يجد المجتمع لها حلاّ، فقرّروا أن يجعلوا من القوّة أداةً لرفع الغبن عن أنفسهم، ومن المواجهة وسيلة لإثبات وجودهم، إلى جانب غيرهم من المحظوظين في المجتمع. (وفي أخبار امرئ القيس أنه غزا بني أسد ثائرا بأبيه، "وقد جمع جموعا من حِمْيَرَ وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها"[9]، ونتهم أنفسنا لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جموعا من فقراء العرب المعدمين، فما أهمية الفقر في معركة من معارك الثأر؟ وما الذي يحمل امرأ القيس على أنْ يجمع حوله جموعا من الفقراء ليغزو بهم بني أسد؟ من الواضح أنّ هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس في إدراك ثأره لابد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطورا خاصا جعلهم يَصْلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة التي طلبهم إليها، وهو تطوّر نحسّ شيئا من سماته ومظاهره في هذا الربط بينهم وبين الذّؤبان، فلابد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه في أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية)[10]، فامرؤ القيس لم يكن ليلجأ إلى الصّعاليك – بالمفهوم اللّغوي السّابق – لمساعدته في الأخذ بثأر أبيه، فـ(من الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذي يقنعون بفقرهم، أو يسْتَجْدون الناس ما يسدّون به رمقهم)[11]، ولابدّ أن يكونوا هنا حسب ما قدّمهم به التّعريف الثّاني، فـ(هم أولئك المشاغبون المغيرون، أبناء الليل الذي يسهرون لياليهم في النهب والسّلب والإغارة، بينما ينعم الخليّون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء. فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية: دائرة الفقر، إلى دائرة أخرى أوسع منها هي دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب)[12]، والمؤكّد أنّ هذه الصّفة قد ارتبطت بهم مع الوقت، كردّ فعل على موقف المجتمع منهم، ولكنّه ردّ فعل في منتهى العنف، فجعلوا (الآخر) مطلقا سببا في وضعهم الأوّل، مساهما في ظلمهم أو ساكتا عنه، ويتحمّل اجتماعيّا كلّ معاناتهم. العنف هنا بهذا المفهوم هو الوجه المرئيّ للحقد المعلن والدّفين على المجتمع، وإذا كان امؤ القيس قد لجأ إلى الصّعاليك في قضيّة تتعلّق

---

[8] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 25، 26.

[9] - البغدادي: خزانة الأدب، ج 3، ص: 532.

[10] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 23.

[11] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 24، 25.

[12] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 24، 25.

بالثّأر تحديدًا، فلأنّه عرف بأنّهم هم الأقدر عليه، بسبب حجم المعاناة التي سبّبها لهم هذا المجتمع نفسه، وبالتّالي ما أصبحوا يُضمرونه له من حقد.

هذان معنيان شائعان ارتبطا بالصّعاليك في كتب التّاريخ، ولكنّ هناك معاني أخرى، فنجد (بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنّهم "صعاليك العرب"[13]، أو تقصّ أخبارا عن صعاليك بعض القبائل[14]، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من "صعاليك العرب"[15]، بل نلاحظ أنّ صاحب الأغاني يقول في تقديمه للسُّلَيْكِ بن السُّلَكَة: "وهو أحد صعاليك العرب... وأخبارهم تُذكر على تواليها ها هنا، إن شاء الله تعالى، في أشعار لهم يُغَنَّى فيها، لتتّصلَ أحاديثُهم"، ممّا يشعر بأنّ هؤلاء الصعاليك كانوا يكوّنون طبقة متميّزة من طبقات المجتمع الجاهلي جعلت أبا الفرج يحرص على أنْ يذكر أخبارهم على تواليها حتى تتصل أحاديثهم، على حد تعبيره)[16]، وإذا كانوا يكوّنون طبقة بكلّ مواصفات الطّبقة، فذلك يؤكّد عددهم، وشدّة تأثيرهم على سير أمور المجتمع، الذي يخشاهم ويضع لهم ألف حساب، خاصّة أنّهم – في تعريف آخر - (صعاليك العرب: ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم)[17]، و(الذّؤبان) هنا تعميق للدّلالة السّابقة، وتأكيد لها، بما يرسّخ فكرة خطورة هؤلاء على غيرهم، كما أنّ تسمية (الذّؤبان) نفسها توحي بحقد المجتمع تجاههم، بسبب سلوكات العنف الممارس ضدّه، وبذلك تكون العلاقة بين الصّعاليك من جهة والمجتمع من جهة أخرى هي علاقة حقد وكراهيّة وعداوة وعنف، وغير مهمّ أن يكون سلوك الصّعاليك ردّ فعل على سلوك انتهجه المجتمع ضدّهم. لقد اعتبرهم (لصوصا) (يتلصّصون)، و(شطّارا)، و(ذؤبانا)، لأنّنا (نسأل اللغويين عن معنى "ذؤبان العرب"، فإذا بهم يحيلوننا مرّة أخرى على "صعاليك العرب". ففي الصحاح "وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصّصون"، وفي القاموس المحيط "وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم"، وفي أساس البلاغة "وهم من ذؤبان العرب: من صعاليكهم وشطّارهم"، وفي النهاية لابن الأثير "يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنّهم كالذّئاب")[18].

بعد استعراض المعاني المختلفة لكلمة (صعلوك)، (نستطيع [...] أن نقف لنسجل أنّ مادة "صعلك" تدور في دائرتين: إحداهما (الدائرة اللغويّة) التي تدلّ فيها على معنى الفقر، وما يتصل به من حرمان في الحياة، وضيق في أسباب العيش، والأخرى نستطيع أنْ نطلق عليها (الدائرة الاجتماعية)، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد في

---

[13] - رسائل الخوارزمي، ص: 141، 142.

[14] - الأغاني، ج 18، ص: 215، البغدادي: خزانة الأدب، ج 3، ص: 405.

[15] - الأغاني، ج 3، ص: 73.

[16] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 27.

[17] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 3، ص: 22.

[18] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 25.

مجتمعه)[19]، وبالتّالي، فقد يكون المعنى اللّغويّ للكلمة دالاّ على الوضع الاجتماعيّ لـ(الصّلوك) قبل تمرّده على قوانين المجتمع (القبيلة)، بل هو السّبب المباشر الذي دفع به إلى التّمرّد، والثّورة والعصيان، أمّا المعنى الاجتماعيّ للكلمة، فيرتبط بالوضع الذي آل إليه الصّعلوك اختيارا منه لمواجهة وضعه الأوّل، وبذلك، فالوضع الثّاني الذي اختاره الصّعلوك كان اختيارا مفروضا عليه، ولم يكن لديه غيره، وبالتّالي، فالمجتمع مجسّدا في القبيلة هو الذي يتحمّل مسؤولية وضعيْه معا، وكأنّ المجتمع هو الذي يحدّد قدر الفرد، ويحدّد أسسا للسّيادة؛ بحيث لا تخرج عن دائرة السّادة وحاشيتهم، بما يُبقي الفقر والفاقة قدرا محتوما على الأغلبيّة المقهورة، والواقع أنّ الأغلبيّة المقهورة الصّامتة هي التي تفرض إرادتها في نهاية المطاف، وتلك هي حكاية الثّوّار عبر التّاريخ.

ممّا لا شكّ فيه أنّ ظاهرة الصّعلكة في المجتمع الجاهليّ ظاهرة اجتماعيّة، لها علاقة بالسّياسة، وبطبيعة الحياة التي كان يحياها الجاهليّون عامّة، وكان لعقيدتهم الوثنيّة دور مهمّ في القضيّة. أعطت الوثنيّةُ القيمةَ كلّها للأصنام ولسدنة المعابد، الذين استغلوا إيمان النّاس ليصنعوا لأنفسهم مكانة اجتماعيّة مصبوغة بالقداسة، وليوهموا (المؤمنين) بهم بأنّهم مُختارون من الله، لينوبوا عنه في الأرض، فلم يفكّروا في غيرهم، وكانوا من موقعهم ذاك، ومن علاقتهم بأصحاب القرار في القبيلة قادرين على أن يدعوا إلى احترام الإنسان مهما كان - وهذا أبسط ما تدعو إليه الأديان جميعها - فيحقّقوا للمقهورين والمعدمين أبسط الحقوق التي من شأنها أن تحفظ كرامتهم. ولكنّ النّظام الاجتماعيّ العربي، القبليّ، لم يكن بريئا أبدا ممّا حلّ بأفراده من مظالم، وأسباب ذلك متعدّدة؛ منها أنّ (طبيعة النظام الاجتماعي القائم آنذاك، والذي تمثلت بعض مثالبه في إفراز زعامات لا تملك مقومات شخصية تستحق بها مكانتها، الأمر الذي كشف عن اهتراء بعض القيم القبلية في العصر الجاهلي)[20]، بل الأمر أكثر قتامة ممّا قد نتصوّر؛ حين نعرف تفاصيل مهمّة ارتبطت بزعماء العرب في ذلك العصر؛ يقول عمرو بن العلاء: (ما رأيت شيئا يمنع من السؤدد إلاّ رأيناه في سيد: وجدنا الحداثة تمنع السؤدد، وساد أبو جهل بن هشام وما طرّ شاربه، ودخل دار الندوة وما استوت لحيته، ووجدنا البخل يمنع السؤدد، وكان أبو سفيان بخيلا عاهرا، وكان عامر بن الطفيل بخيلا فاجرا، وكان سيدا، والظلم يمنع من السؤدد، وكان كليب وائل ظالما، وكان سيد ربيعة، وكان حذيفة بن بدر ظالما، وكان سيد غطفان، والحمق يمنع من السؤدد، وكان عيينة بن حصن أحمق، وكان سيدا، وقلة العدد تمنع من السؤدد، وكان السيل بن معبد سيدا، ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان، والفقر يمنع من السؤدد، وكان

[19] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 27.

[20] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 32.

عتبة بن ربيعة مملقا، وكان سيدا)[21]. لا يمكن أن نتصوّر مجتمعا فاضلا قائما على الفساد، أو نرجو صلاحا من زعماء شوّهوا معنى الزّعامة. والحقيقة التّاريخيّة هي أنّ ما كان يتغنّى به الشّعراء من علامات النّبل والأخلاق الفاضلة في الجاهليّة، إنّما كانت مرتبطة بالأفراد المقهورين، كعلامة من علامات التّآزر والتّعاون، تعويضا لما افتقدوه كـ(مواطنين) ينعمون بحقوق معلومة، بعيدا عن الزّعماء والقادة، الذين لم يكن يهمّهم سوى تسيير الحروب، والتّخطيط للإغارات، وحماية قوافل تجارتهم، وعدّ أموالهم وعبيدهم، والنّتيجة أنّنا حين نطالع شعر الصّعاليك، يستوقفنا فيه الحديث عن الجوع، كأكبر دليل على سوء المعيشة، المنجرّ عن سوء السّياسة، فـ(طغى حديث الفقر على ما سمي بشعر الصعاليك، فلا تكاد ترى صعلوكا لم يشكُ العُدْمَ... بل كثيرا ما رأينا الجوع يبلغ بهم حدا شاقا، فالسّليك كاد يصاب بإغماء نتيجة ذلك، حتى أشرف على الموت في شهور الصيف)[22]، (وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل)[23]، والقضيّة ليست دائما مرتبطة بجفاف الصّحراء وقحطها وبخلها، لنُحمّل المكان وتضاريسه – ظلما - ما كان يتعرّض له الأفراد من مظالم، أبرزها الجوع؛ (فأجزاء كبيرة من اليمن اشتهرت بخصبها، والطائف عُرفت بكرومها وأشجارها حتى غدت مصيفا لسادات العرب، ونخيل يثرب تحدّث عنها المؤرخون والشعراء على السّواء، واليمامة من أخصب البلاد حينذاك، ويجاور كل ذلك صحراء قفرٌ ومطرٌ نزْرٌ، مما أثار الإحساس بالفقر في نفوس من لم يجدوا قوت يومهم، بينهما رأوا مَنْ حولهم يتمتعون بالغنى، وينالون بثرائهم وجاهة المجتمع)[24]، ولكنْ، القضيّة هنا متعلّقة باستئثار فئة قليلة بخيرات الأرض، على حساب فئات كثيرة، وجدت نفسها مقصاة من كلّ حقّ، فكان أقلّ ما حصلوا عليه الجوع؛ (... الطّبقيّة الاجتماعيّة من تجلّيات البنية الصّداميّة بين: المركز / الهامش. المركز السّياسيّ والثّقافيّ يعمل دائما على إقصاء الآخر عبر عدّة استراتيجيّات أخلّت في توزيع الثّروات، فتركّزت بيد السّلطة ومن يدور في فضائها، بينما نجد عامّة النّاس عاجزين عن الحصول على أبسط أسباب الحياة)[25]، فلم يجد المقهورون - مجسّدين في الصّعاليك - بدّا من التّفكير في تغيير وضعهم، فـ(كان قرارهم بمواجهة مجتمعهم بالاحتجاج والتمرد، نتاجا لبؤس الوضع الاجتماعي والسياسي وهلهلتهما، ووعيا من قِبل المحتجين بتحقيق حياة كريمة تجدر بمثلهم، هو أخطر القرارات التي اتخذوها، محتملين ضريبتها القاسية، ورافضين أنْ يعيشوا على هامش المجتمع الجاهلي، أو أنْ ينتظروا

---

[21] - عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1997، ج 3، ص: 90، 91.

[22] - ينظر: أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج 18، ص: 135.

[23] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 30.

[24] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 36، 37.

[25] - عماد عويد العبودي: شعر الجوع في الأدب العربي العصر المملوكي أنموذجا، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مجلد: 38، عدد: 1: 2013، ص: 5 – 31.

فضل ثراء أغنيائه، وكان الإيمان بفكرة الفناء من أجل المبدأ من أهم الشعارات التي نادى بها شعراء الصعاليك، الذين عرفوا أنّ دين مجتمعهم يقضي أنّ الحق للقوة فجابهوه بمثلها، ورأوا أنّ الغاية تبرر الوسيلة، فقدموا أجسادهم قربانا لأهدافهم وكرامتهم)[26].

إنّ صفة الفقر التي ارتبطت بالصّعاليك إذن، هي التي استدعت الصّفة الأخرى المتمثّلة في التّمرّد والثورة والخروج على القانون. التّمرّد هنا ليس تمرّدا سياسيّا يهدف إلى إحلال نظام محلّ نظام آخر، أو مساندة فئة للتّحكّم في السّلطة على حساب فئة أخرى... التّمرّد هنا قضيّة حياة أو موت. إنّه تمرّد في سبيل كرامة الإنسان المغتصبة، فقرّر الصّعاليك بذل الرّوح في سبيلها، ولهذا نجد (الصّورة التي يقدّمها تأبّط شرّا لنفسه خاصة، وللصّعلوك بعامة صورة، تكشف عن إنسان وضع نفسه جنبا إلى جنب مع الخطر، أو في مواجهته فنراه يتحدّث عن نفسه بضمير الغائب فيقول:

يسري على الأين والحيّات محتفيّا نفسي فداؤكَ من سارٍ على ساقِ

فهو يمشي حافي القدمين حيث الأفاعي والقفر والمخاطر، وحيث الموت الذي يترصّده، فنراه يتحدّث عن نفسه مرّة أخرى بضمير الغائب، فيقول:

قليلُ غرار النّوم، أكبرُ همّه دم الثّأر، أو يلقى كميّا مسفّعا
قليلُ ادّخار الزّاد إلاّ تعلّةً فقد نشز الشّرسوف والتصق المعا
يبيتُ بمغنى الوحش حتّى ألفنَهُ ويصبح لا يحمي لها الدّهرُ مرتعا
على غرّة أو مهرة من مكانس أطال نزالَ القوم حتّى تسعسعا
ومنْ يُغْرَ بالأعداء لابدّ أنّه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا)[27]

بل إنّ من الباحثين من يرى أنّ الصّعاليك قدّموا صورة لإنسان جديد، غير مألوفة في المجتمع الجاهلي، هي صورة البطل المتمرّد الملحميّ، الذي تجاوز ذلك الفرد الجائع الباحث عن الطّعام، إلى شخص نموذجيّ امتهن (البطولة) و(القتال) دون خوف أو ندم، فقد (جاء في موسوعة الشعر العربي أن في شعر تأبّط شرّا يتفتّح **التّمرّد الملحمي** ضمن نموذجيّة مكثّفة الخيال والحسّ الحار، وتتخلّلها إيقاعات النّفس اللاّهثة وراء نشوة الطّعن والضّرب والاستغراق في لحظة المجد الصّاعق، بدون تهيّب من خطر وبدون ندم على جرح أو نصب...)[28]، على أنّه يجب التّذكير أنّ الجوع الذي عانوه، مفروضًا من المجتمع على سبيل القضاء والقدر المحتوم، هو الذي أدّى بالصّعاليك إلى التّمرّد، ولكنّ تمرّدهم هذا قد أدّى بهم إلى حياة فيها الكثير من المخاطر التي تهدّد حياتهم، وفيها الكثير من شظف العيش، وفيها أيضا من الجوع الكثير، ولكنّه

[26] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 37، 38.

[27] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 187.

[28] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 187.

هنا جوع لا يتعارض مع كبرياء صاحبه، لأنّه ليس مفروضا من الغير، لقد كان منتظرا من الحياة الجديدة التي اختارها الصّعلوك طواعية، ولذا (نرى الصعاليك يؤكدون قدرتهم على احتمال الجوع والصبر عليه، ويفضلون ذلك على قبول الذل والهوان، يقول أبو خراش الهذلي)[29]:

وإني لأثوى الجوع حتى يملني ... فيذهب، لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القراح فأنتهي ... إذا الزاد أمسى للمزلّج ذا طعم
أردّ شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلّة ... وللموت خير من حياة على رغم

بل إنّهم، بعد ثورتهم (على الجوع) في مجتمعهم، أصبحوا يفتخرون بصبرهم عليه في الحياة الجديدة التي اختاروها، لأنّه أصبح يمثّل جزءًا من اختيارهم من جهة، ومن جهة أخرى أصبح مناسبة لممارسة قيمة اجتماعيّة في حقّ الغير، الأكثر جوعا، والأولى بالأكل، وهي (الإيثار)، (فنراهم يتحمّلون الجوع من أجل أنْ يأكل الآخرون، وهذا يمثّل واحدا من مفاخرهم، يقول عروة بن الورد:

إنّي امرؤٌ عافي إنائيَ شرْكةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي إناؤك واحدُ
أتهزأ منّي أنْ سمنتَ، وأنْ ترى ... بوجهي شحوبَ الحقّ، والحقّ جاهدُ
أقسّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراحَ الماء، والماءُ باردُ)[30]

تؤكّد الأبيات السّابقة أمرا مهمّا في حياة الصّعاليك، وهو أنّ مطالبتهم بالعدالة الاجتماعيّة في مجتمعهم، لم يكن مطلبا شخصيّا على سبيل الطّمع في الغير، والاعتماد عليهم، وإنّما كان إيمانا راسخا بأنّ الأمر لن يستقيم في مجتمع خال من التّكافل، ثمّ قبل ذلك، فالعرب، أفرادا، معروفون منذ القديم بكرمهم الزّائد الذي ما زال إلى اليوم مضربا للمثل.

لا يعيب المجتمع الجاهليّ أبدا كونه مجتمعا قبليّا متناحرا، وطبقيّا استغلاليّا، فالأفراد – الأغلبيّة الصّامتة – لم تختر مطلقا ذلك النّظام القائم، ولا ممثّليه من أصحاب الأمر والنّهي، كحال المجتمعات كلّها، وبالتّالي فهو لا يمثلهم، ولذلك نجد حياتهم البسيطة، كما تصوّرها لنا قصائدهم، نموذجا للنّبل والكرم وإغاثة الملهوف... وقد يكون ذلك نتيجةَ معايشة أصحابها لمظالم ومضايقات (السّادة)، ومعاينة التّناقض القائم بين القيم التي تشكّل حياة البسطاء، والواقع القائم كما أراده (السّادة)، فعنترة بن شدّاد مثلا (كان يحمل في داخله روحا صعلوكية ثائرة ومتمردة، ونحسب أنه لم يكن بينه وبين الصعلكة إلا هذا الاعتراف الذي لم يَرُقْ له كثيرا، إذ رآه منقوصا، ولهذا جاءت معلقته مرافعةَ محامٍ بارعٍ تجاه قضّية إنسانية سامية)[31]، لقد كانت حياته كلّها، منذ الميلاد، وحتّى أصبح لسيفه القول الفصل، عناء جسديّا ونفسيّا وفكريّا

[29] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 184.
[30] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 184، 185.
[31] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث، ص: 39.

من (قوانين) متوارثة، لا يعرف وطأتها إلاّ أمثالُه، وتؤكّد حياتُه أحد أهمّ الأسس التي قام عليها المجتمع الجاهليّ؛ وهو القوّة، كان راعي إبل، وعبدا حقيرا وهو صغير وضعيف، وأصبح سيّدا للعرب حين أصبح بطل أبطال العرب.

صفات الصّعاليك:

تتحدّد صورة الصّعاليك من خلال الشّعر بمجموعة من الملامح، تجعله فردًا نموذجيّا على المستوى الاجتماعيّ، والواقع أنّ صعلكتهم في حدّ ذاتها إشهار لتميّزهم، وإعلان عن تمرّدهم المقترن بالطّموح والأمل في مستقبل أفضل. القناعة بالوضع، والوضع المؤلم تحديدا، معادل للوضاعة وعدم الإحساس والشّعور معا، وهو انتهاك لكرامة الذّات قبل غيرها، والصّعاليك في المقابل ثائرون من أجل هذه الذّات وكرامتها، لقد كانوا (في المجتمع الجاهليّ أفرادا متميّزين، من حيث كونهم شعراء فرسان، فالشّاعر رجل متميّز في مجتمعه، فإذا جمع إلى جانب ذلك الفروسيّة والقدرة على القتال، فإنّه يكون قد جمع إمكانات الرّفض لأيّ وضع لا يتّفق وشاعريّته من ناحيّة، وفروسيّته من ناحيّة أخرى)[32]، فحين اتّخذوا قرارهم بمعاداة المجتمع / القبيلة، كانوا على يقين بأنّ أعداءهم سيكثرون[33]، وأنّ العداوة ستشتدّ حدّتها، وأنّهم لا قِبَلَ لهم بمواجهة النّاس جميعا، ولذلك فقد أتقنوا، إلى جانب الفروسيّة، (الهرَبَ) و(سرعة العَدْوِ)، واعتبروا ذلك مصدرا للفخر والتّباهي، وموضوعا شعريّا يساهم في بناء أمجادهم، وهم محقّون في ذلك؛ (ولو ضربنا المسألة على محكّ الصّعلكة لقبلنا حجج الصعاليك؛ فهم ثائرون جوّالون، لا حصون لهم ولا دروع؛ أرجلهم خيولهم، وجلودهم دروعهم، فكيف يحتمون من الفرسان الدّارعين إذا ثبتوا؟ ومن يقارن قتالهم بحرب العصابات الحديثة التي تُلخّص بكلمتي (اضرب واهرب) يجد أن للصعاليك شفيعا يسوّغ فرارهم من الخصوم)[34]، ثمّ إنّ العبرة في وضعهم ذاك هي أن يعودوا إلى أُسَرِهِمْ سالمين من الأذى، غانمين ما خرجوا من أجله، ولذلك كان (الهرَبَ) و(سرعة العَدْوِ) عندهم فنًّا وطريقةً لمواجهة العدوّ في الوقت نفسه، ويُحكى أنّ الشّنفرى الشّاعر الصعلوك (كان يُضرب به المثل في سرعة الرّكض ومدى القفز؛ قيل كانت الخيل لا تلحقه، وقيل قيست نزوة "قفزة" من نزواته فوُجدت واحدة وعشرين خطوة "ثمانية أمتار ونصف المتر"، وكان

---

[32] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2001، ص: 181.

[33] - (من الثّابت أنّ الشّنفرى أنشأ مع بعض رفاقه العدّائين، ومنهم تأبّط شرًّا، والسّليك بن السّلكة، وعمرو بين البرّاق، وأسيد بن جابرعصبةً عُرفت في الأدب العربيّ باسم الشّعراء الصّعاليك، وكانت طرق معيشة هؤلاء تنحصر بالسّلب، والنّهب، والغارات ليلا، فيروّعون النّساء، والأطفال، ويبلبلون عقول الرّجال، حتّى إذا خافوا أن تدركهم // الخيل اتّجهوا نحو الجبال العاصمة، والأودية الوعرة، والأدغال الموحشة، فتغلغلوا فيها). الشّنفرى: الدّيوان، جمع وتحقيق وشرح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ ط 2، 1996، ص: 11، 12.

[34] - غازي طليمات، عرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، دار الإرشاد، ط 1، حمص، 1992، ص: 226.

الشنفرى يغزو على رجليْه وحدَه، أو في نفر قليلين من الصعاليك العدّائين الفُتّاك أمثالِه كقريبه تأبّط شرّا، ثم عامر بن الأخنس وعمرو بن برّاق ورجل اسمه المسيّب وأسد بن جابر، وكان يُضرب به المثل في الحذق والدّهاء)[35]، ويرتبط (الهرَبَ) و(سرعة العَدْوِ) باستراتيجيّةٍ اتّبعها الصّعاليك، فعُرفوا بها، لأنّهم أفرادٌ قليلون في مواجهة قبائل عديدةٍ، بحيث تكون المواجهة المباشرة بين الطّرفيْن محسومةً سلفا للطّرف الأكثر عدّة وعتادا وعددًا، وهذا الطّرف ليس الصّعاليك؛ فـ(الصّعلكة مواجهة بين أفراد، أما الحرب فهي مواجهة بين جماعتين أو قبيلتين. الصعلكة قرار فردي، والحرب قرار جماعي، ومهما قيل عن دور الشاعر أو الزعيم أو رئيس القبيلة في إشعال الحرب فإن القرار في النهاية مطروح للجماعة، تقبله أو ترفضه)[36].

إنّ الصّعلوك ليس شاعرا اختار الصّعلكة طريقَ حياةٍ فحسب، بكلّ ما تتطلّبه هذه الصّعلكة من متطلّباتٍ تضمن له حياته، إنّه إنسان، وكونه إلى جانب ذلك شاعرا يعني بالضّرورة أنّ رهافة الإحساس عنده هي التي شكّلته، وربّما لولاها لبقي قابعا في مكانه داخل القبيلة، راضي النّفس بما قُدِّرَ له. الصّعلوك شخص ربَّتْهُ الصّعلكةُ حسبمَا تتطلّبه ممارستُها، لأنّ صغار النّفوس الذين وُلدوا وفي أيديهم ملاعقُ من ذهب، أضعف وأجبن من أن يتصعلكوا، ولهذا تحقّقت فيه (الصّفات العليا المفضّلة في عالم الصّعلكة، فالرّجل صبور كتوم للألم، متجلّد طموح كثير الأسفار، يفضل المسالك الوعرة، يبيت وحيدا بتلك الأرض الواسعة، ويعتلي ظهور المهالك، يحيا مع الوحش ويعيش مع الطّبيعة، يعرف طريقه في اللّيل المظلم، مهتديا بالنّجوم، سريع الجري، يقظ، فإذا نام ظلّ قلبه يقظا يحرسه)[37]، والواقع أنّها صفات تتحدّد على أساسها مواصفات الرّجولة الحقّة، التي تمكّن صاحبها من مواجهة مصاعب الحياة بحزم وعزم، معتمدا على نفسه، غير عابِئٍ بسواه، وقد تعلّم الصّعلوك هذه المبادئ حين كان منبوذا في مجتمعه (مع النّاس)، وجعلها جزءًا من يوميّاته (مع الحيوان) بعد تمرّده، لأنّ الإنسان لم يمنحه سوى القمع، وسيمنحه الحيوان الإنسانيّة التي ظل يبحث عنها، ولهذا، وجدنا الشّنفرى قد تخلّى (عن الإنسان، [لكيْ] يصادق الحيوان. امتداح الحيوان، وإعلانه صديقا، يعنيان الخلاصَ من عالم القمع. لكنّه في لجوئه إلى الطّبيعة، إلى مجتمع الحيوان، لا يبشّر ضدّ الإنسان، وإنّما يبشّر بمجتمع أكثر إنسانيّة)[38]، ولكنّه مع ذلك يعرف الأخطار المحدقة به، فالحيوان الذي لا يمارس القمع أنانيّةً، قد يفتك به، ليس قمعًا، ولكنْ في سبيل البقاء، ولذلك نجده (... كالثّعبان الذي ينفث سمّا، يواجه الشّمس والبرد قويّا قادرا، يابس الجنبين، حازما كاللّيث أو الذّئب، يركب

---

[35] - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأمويّة، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 102.

[36] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 186، 187.

[37] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 189.

[38] - أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط 1، 1989، ص: 92.

الهول ولا يصحبه إلاّ السّيف)[39]، لأنّه (هجر المجتمعَ وعاش حيث الوحوش والقفر والحيّات، يواجه الموت الذي يحيط به، ويتهدّده من الطّبيعة والأعداء الذين يترصّدونه)[40].

يقول في تصوير ذلك[41]:

ولي، دونكم، أهلونَ: سِيّدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زُهْلُول وَعَرفاءُ جْيألُ[42]
هم الأهلُ، لا مستودعُ السّرِّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جَرَّ، يُخْذَلُ[43]
وكلٌّ أبيٌّ، باسلٌ، غير أنّني إذا عرضت أولى الطّرائدِ أبسلُ[44]

في هذا الجوّ الذي لا يقوى على مواجهته إلاّ الأشدّاء من الرّجال، يعيش الصّعلوك اختيارا، وكان بإمكانه اخيار نمط حياتيٍّ آخر أكثر يسرا، ولكنّه، في رأيه، سيكون طريقا ذميما، سيفتك بما تبقّى له من كبرياء، ولذلك فهو في اختياره ذاك، (رجل صبور كتوم للألم، متجلّد طموح كثير الأسفار، يفضل المسالك الوعرة، يبيت وحيدا بتلك الأرض الواسعة، ويعتلي ظهور المهالك، يحيا مع الوحش ويعيش مع الطّبيعة، يعرف طريقه في اللّيل المظلم، مهتديا بالنّجوم، سريع الجري، يقظ، فإذا نام ظلّ قلبه يقظا يحرسه)[45].

الواقعيّة في شعر الصّعاليك:

حياة الصّعاليك خارج القبيلة، بين أعداء كثيرين يتربّصون بهم، وسط وحوش ضارية أرحمها مفترس، في بيئة قاسية لا ترحم، جعلهم يتكيّفون مع الوضع، ويتّخذون ما يلزمهم من حيطة، وأدنى ذلك اليقظة والحذر حتّى أثناء (النّوم)؛ كما اعترف تأبّط شرًّا:

إذا خاص عينيه كرى النّوم لم يزلْ له كالئٌ من قلب شيخانَ فَاتِكِ

هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر، التي استنفذت عمر الصّعلوك كلّه، لم تترك له من الوقت ما يصرفه في المتع والملذّات، ولذا، فإنّ شعره تَأْرِيخٌ لحياته وعنائه وبطولته وهروبه... وبذلك فهو يختلف كلّيّا عن شعر القبيلة، الذي كثيرا ما يدور حول مغامرات الشّباب، في مواضيع الغزل والصّيد... وفي المقابل، فالصّعلوك لا يتغزل؛ (ليس في شعرهم غزل، وكيف يتغزّل مَن يقضي نهاره يترقّب، وليله يترصّد، ولا يستقرّ في مقام؟ ويُكثرون من توجيه الخطاب في شعرهم إلى زوجاتهم)[46]، لأنّ (احتراف الفروسيّة تأكيد للذّات، ومنفذ إلى السّيادة، إذ لا سبيل إلى إثبات

---

[39] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 190.

[40] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 189.

[41] الشّنفرى: الدّيوان، جمع وتحقيق وشرح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ ط 2، 1996، ص: 59.

[42] - أهلون: جمع أهل. السّيد بكسر السّين: الذئب. العملّس: الذئب القوي السريع. الأرقط: النّمر الذي في جلده بياض وسواد. الزّهلول: الأملس. العرفاء: الضّبع الطويلة العرف. جيأل: اسم للضّبع، والأصل: جيأل عرفاء.

[43] - ذائع: منتشر. جرّ جريرة: جنى جناية. خذله: تخلى عن نصرته.

[44] - الأبيّ: الذي يأبى الذلّ والظلم. الباسل: الشجاع البطل. الطرائد: جمع طريدة، وهي الفريسة التي تُطارد.

[45] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 189.

[46] - ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، لبنان، ص: 41.

الهوّيّة إلاّ عبر بوّابتيْ الفروسيّة والكرم، فبالفروسيّة يخترق الصّعاليك حاجز العبوديّة، وبالمغنم يجتازون ظاهرة الفقر المادّيّ والمعنويّ)[47]، كما أنّ تفرّغ هذا الشّاعر لمواجهة المتربّصين به، والسّعي المضني لإعالة نفسه وأسرته، لم يسمح له أيضا بالاعتناء بشعره، وتنقيحه، مثلما كان يفعل شاعر القبيلة، الذي عاش حياة مختلفة عن حياته.

وفي المقابل، اهتمّ الشّاعر الصّعلوك بكلّ ما يحيط به، فصوّره، وبكلّ ما يدخل في تشكيل تفاصيل حياته اليوميّة، مهما كانت بساطته في رأي غيره، فـ(صوّر الشّعراء الصّعاليك في فنّهم البيئة البدويّة التي يعيشون فيها بكلّ مظاهرها: الصّحراء القاسية بشعابها وجبالها وأغوارها، وصخورها ومياهها، وحرّها وبردها، ولياليها المظلمة الرّهيبة، وحيوانها الشّارد في آفاقها، ووحشها الرّابض في أرجائها، وحشراتها المتوارية في جحورها والسّارية فوق رمالها، وصوّروا مختلف مظاهر الطّبيعة المختلفة كما شاهدوها: طلوع الفجر، وغروب الشّمس، والنّدى المتساقط في أوّل اللّيل وفي آخره...)[48].

المكانة التي يحظى بها شاعر القبيلة بين قومه، منحته المعجبين به والمتعصّبين له، لأنّه لسان حالهم، ولذلك ذاب فيهم، حتّى كأنّه غير موجود، ولكنّه في المقابل، فاز بتشريف القبيلة له، فظلّت عصرا كاملا تردّد شعره واسمه. كان لشاعر القبيلة - نظرا لمكانته فيها - الوقت الكافي، والأمن اللاّزم، والطّمأنينة الكاملة بين قومه، ليعيش حياته ويقول الشّعر كيف يشاء، في إطار المكان وخصوصيّاته، أمّا الشّاعر الصّعلوك فعاش وحيدا، وفي أحسن الأحوال مع أفراد قليلين، يترصّدون العدوّ ويترصّدهم، وأثناء ذلك، تحيط بهم الضّواري من كلّ جهة، ولذلك لم يكن أمام الصّعلوك الشّاعر إلاّ هذه الحياة موضوعا لشعره، هذا الذي ميّز (شعر تأبّط شرّا، كما هو شأن شعر الصّعاليك دائما بنبرة الواقعيّة، والنّزعة التصويريّة الطّبيعيّة، مع رؤيا حيويّة للوجود، فائرة بنزعات الإنسان القويّ المقبل على المجهول)[49]، وهذا ما ميّز شعر غيره من الصّعاليك أيضا، فـ(للشّنفرى القصيدة التي تسمّى لاميّة العرب، والتي تبلغ في الحسن والفصاحة مبلغا عظيما، وتصوّر حياة الصّعلوك تصويرا دقيقا بارعا)[50]، وممّا يقوله فيها[51]:

ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيَّعٌ، وأبيضُ إصليتٌ، وصفراءُ عيطلُ[52]

---

[47] - محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 170.

[48] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ص: 280.

[49] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة، 2001، ص: 187.

[50] - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ص: 102، 103.

[51] - الشّنفرى: الدّيوان، جمع وتحقيق وشرح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ ط 2، 1996، ص: 60.

[52] - مشيع: شجاع كأنه في شيعة وجماعة تنصره. الأبيض: السيف. إصليت: صقّيل أو مصلت بمعنى مسلول من غمده. الصفراء: القوس، وعيطل: طويلة العنق.

هَتوفٌ، من المُلْسِ المُتُونِ، يزينها رصائعُ قد نيطت إليها، ومِحْمَلُ[53]
إذا زلّ عنها السهمُ، حَنَّتْ كأنها مُرَزَّأةٌ، ثكلى، ترِنُ وتُعْوِلُ[54]

فنبرة الواقعيّة هي النّبرة التي فرضت نفسها على شعره، باعتبار أنّ الواقع متمنّع أمامه، ولا ينقاد له بيسر، فعاشه الشّاعر لحظة بلحظة، بكلّ جوارحه. تسمح لنا هذا الواقعيّة بأنْ نطمئنّ إلى هذا الشّعر إلى حدّ كبير، رغم المبالغات التي ارتبطت بالشّعر منذ وجوده، ولذا كان من مظاهرها (اتّخاذهم الحياة بما فيها من خير وشرّ مادّة لموضوعاتهم، وبعدهم عن الإمعان في الخيال إمعانا ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام)[55]، ثمّ إنّ هذه الواقعيّة قد ارتبطت بـ(صدق النّقل عن الحياة، ومطابقة الصّورة للأصل، بحيث لا يشعر النّاظر في شعر الصّعاليك باختلاف بين الصّورة الشّعريّة وأصلها في الحياة، أو بين ما يراه في شعرهم وما يشاهده في الحياة، حتّى ليخيّل إليه أنّه أمام مجموعة من الصّور "الفوتوغرافيّة")[56].

ومن مظاهر هذه الواقعيّة التي ارتبطت بصدق التّجربة النّاتجة عن شدّة المعاناة، أنّ الشّاعر الصّعلوك أصبح لا يرى سوى ذاته هو، أو جماعته من الصّعاليك، وأصبح الضّمير (هم) الدّال على القبيلة غائبا تماما في شعره، وحلّ محلّه ضمير المتكلّم، بما يوحي به من است

عادة الذّات لكينونتها، وربّما كان التّركيز على الذّات هو أهمّ صور الواقعيّة على الإطلاق عند شاعر، عاش منبوذا، وقرّر عن قناعة أن يكمل حياته متمرّدا، (وإذا كان هذا التّمرّد ليس تمرّدا فلسفيّا، وإذا كانت أسسه النّظريّة غير واضحة وضوح الأسس النّظريّة للتّمرّد الفلسفي، فإنّ ذلك لا يعني أنّ الصّعلكة كانت بلا جذور نظريّة أو فلسفيّة. صحيح أنها كانت أقرب إلى التّمرّد الطّبيعيّ الذي يواجه فيه الإنسان المجتمع، يقبل ويرفض ما تمليه نفسه وذاته، ويختار موقفه دونما إعمال لفكر، ولكنّ الاختيار لم يكن مقطوعا عن التّفكير، وعن التّأمّل، وتقديم الموقف من خلال رؤية ذات أبعاد فكريّة وملامح فلسفيّة)[57]، ويقدّم عروة بن الورد رؤيته للصّعلكة، مبرزا دور الفقر، كسبب رئيسيّ مباشر لتحوّله الفكريّ، الذي صنع منه صعلوكًا[58]:

دعيني للغنى أسعى، فإنّي رأيتُ النّاس شرّهم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم وإنْ أمسى له حسبٌ وخيرُ

---

[53] - الهتف: الصوت المنغم، أعني صوتا مميّزا. والملاسة: ضد الخشونة. والمتن: الصلب وهو الظهر. الرصائع: جمع رصيعة، وهي ما يُرصع به، أيْ يُحلّى به. نيطت: عُلّقت. المحمل: ما يُعلق به السيف أو القوس. والبيت وصف لقوسه.

[54] - زلّ السهم: خرج منها. الحنين: صوت معيّن. حنّت: صوّتت بهذا الصوت. مرزّأة: كثيرة الرزايا والمصائب. عجلى: مسرعة. ترنّ: تصوّت برنين. تعول: ترفع صوتها بالبكاء والعويل.

[55] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 280.

[56] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 280.

[57] حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 191.

[58] - عروة بن الورد أمير الصّعاليك: الدّيوان، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1998، ص: 79.

ويقصيه النّدِيُّ، وتزدريه حليلتُه، وينهرُه الصّغيرُ
ويُلفَى ذو الغنى، وله جلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذّنبُ جمٌّ ولكنْ، للغنى ربٌّ غفورُ

يأتي الفقر كظاهرة اجتماعيّة، لا ليأخذ مكانه مقابل الغنى، كصفة للمحظوظين في المجتمع، ولكنْ ليشكّل الفقير فكريّا، وقد ينتهي به ذلك إلى التّمرّد. الفقر الذي ارتبط بالصّعاليك واقترن بـ(لا حول ولا قوّة) لهم، غَيَّرَ في أذهانهم مفهومَ المجتمع، والعلاقات، والحياة، والواقع... وجعلهم يبتكرون مفاهيم خاصّة بهم، ويطمحون بواسطة العنف إلى تحقيقها على أرض الواقع، فـ(الشّنفرى إذْ يخرق قانون القبيلة، لا يخرقه لكي يجعل من نفسه سيّدا يَستعبد الآخر، أو يسلُبُه حقّه، وإنّما يخرقه لكي يشير، عبر عيشه في عالم الحيوان الذي لا قانون فيه، إلى وجوب تأسيس عالم لا أمر فيه ولا نهيَ، لا آمرَ ولا مأمور، أيْ ليس فيه غيرُ الطّبيعة والحرّيّة. فهو يطمح إلى أن يجعل الآخرين سعداء مثله. إنّه يختار لهم ما اختاره لنفسه. إنّه يساويهم بنفسه)[59]، وهنا، يتحوّل الشّنفرى، الإنسان المنبوذ والفقير إلى منقذ يحقّق الخلاص للآخر مطلقا، ويجعل السّعادةَ التي حُرم منها حقًّا مشاعا بين النّاس جميعا، ولكنّ ذلك لن يتأتّى حتّى يتغيّر المجتمعُ القائم، الذي لم يحقّق سوى الذّلّ والفقر والقهر، ولذا فهم لا يحترمون هذا المجتمع، ولا يعترفون به؛ ولا يؤمنون بالانتساب إليه، إنّ (شعراء "المواجهة" من الصّعاليك لا ينطلقون في رؤيتهم من اغترابهم عن الحكومة فحسب، بل إنّهم لا يؤمنون بـ"المواطنة" إذا كان ثمنها كرامتهم، فالوطن في منظورهم يعني "بلد الحرّيّة"، وهو ما يؤكّده مالك بن الرّيب في قوله:

ففـــي الأرض عـــن دار المذلّـــةِ مـــذهبٌ وكـــلُّ بـــلادٍ أُوطِنَـــتْ كـــبلادي[60])

وطبيعيّ أنّ الذين غيّروا الواقع على مرّ التّاريخ هم الذين تَأَذَّوا منه، وعانوا من ويلاته. لقد استطاعوا أن يفهموا طبيعته، ويعرفوا مفاسده، وعرفوا أيضا كيف يمكن للنّاس أن يتعايشوا بسلام، دون أن يضطرّوا إلى المواجهة والصّراع. وطبيعيّ أيضا أن تنبع الثّورات دائما من الطّبقات الدّنيا التي أرادت أن تضع حدّا للمعاناة، (ولذلك فإنّ ثورة الشّنفرى إنّما هي على الإنسان لا على الغيب. وهو إذن لا يرفض العالم، وإنّما يرفض صورته السّائدة. إنّه يتمسّك بالعالم، لكنّه يقدّم له صورةً أخرى بقانون آخر. إنّ مشكلته هي في التّناقض القائم بين الحرّيّة والحدود التي يصطدم بها من كلّ جانب. يريد أن يمحوَ هذا التّناقض، أن يقضي على السّائد الظّاهر في هذا العالم، ويستدعي عالما آخر، عالما بلا عبوديّة)[61]. العالم الآخر الذي يطمح الشّنفرى إلى تحقيقه ليس عالما خياليّا، على غرار الجمهوريّة الأفلاطونيّة، وإنّما هو عالم كعالمه،

[59] - أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط 1، 1989، ص: 91.
[60] - عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص: 166.
[61] - أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط 1، 1989، ص: 91، 92.

ويتميّز عنه بالإنسانيّة فقط، فهي وحدها التي تحترم الكرامة والرّوح، وإن تحقّق ذلك، ذابت الفوارق بين النّاس، ووحّدت القيم بينهم، وأعلنت الحرب على الظّلم والقهر والقتل، وعاش النّاس سواسية، لا فرق بينهم إلاّ بما يقدّمونه من واجبات. ورغم أنّ للدّين دائما رأيا أساسيّا في حياة النّاس الدّنيويّة، إلاّ أنّ الدّين الوثنيّ في عصر الشّنفرى كان دينا لا تهمّه الدّنيا ولا الآخرة، لأنّه كان يقدّس الأشخاص ذوي السّلطة والمال، وقبل هؤلاء، كان يقدّس ممثّليه من الكهّان، فضاع النّاس، وضاعت قداسة الإنسانيّة، لقد (عاش الشّنفرى (في عالم مادّيّ وثنيّ. لم يكن الوسط الذي عاش فيه يعرف الله الواحد. لم يكن موجودا، في الوعي [...]. كان الإنسان هو المطلق. ولم يكن صراعه مع قوّة غيبيّة، بل مع قوّة أرضيّة. كانت الأرض مملكةَ الإنسان، ولذلك فإنّ ثورة الشّنفرى إنّما هي على الإنسان لا على الغيب. وهو إذن لا يرفض العالم، وإنّما يرفض صورته السّائدة. إنّه يتمسّك بالعالم، لكنّه يقدّم له صورةً أخرى بقانون آخر. إنّ مشكلته هي في التّناقض القائم بين الحرّيّة والحدود التي يصطدم بها من كلّ جانب. يريد أن يمحوَ هذا التّناقض، أن يقضي على السّائد الظّاهر في هذا العالم، ويستدعي عالما آخر، عالما بلا عبوديّة)[62].

خصائص شعر الصّعاليك:

إنّ تميّز الصّعاليك عن غيرهم (من مواطنيْ القبيلة) قد جعل كلّ ما يتّصل بهم متميّزا، ومثلما يتميّزون عن غيرهم حياتيّا إلى درجة العداوة، فما يرتبط بهم قد أمعن في الاختلاف حتّى صار(صعلوكيًّا) تماما. إنّ التّميّز القائم بينهم قد أفرزته طبيعة حياتهم المختلفة، فمن الطّبيعي أن ظروف الفرد هي التي تصنعه، وتصنع عاداته وتفكيره، ولا يمكن أن يتشابه سيّدٌ وصعلوكٌ إلاّ فيما يمكن أن يجمع بينهما ككائنين إنسانيّين، أمّا طريقة ممارسة الحياة والفكر فلا يمكنها أن تكون واحدة أبدًا، بحكم الاختلافات التي تتميّز بها طبقة اجتماعيّة على أخرى – وهذه الاختلافات هي جوهر نشوء الطّبقات الاجتماعيّة - و(يتجلّى المفهوم الاجتماعيّ القديم في التّقسيم الطّبقيّ لفئات المجتمع؛ فتختلف طبقة الأسياد عن العبيد، وطبقة الأغنياء عن الفقراء، وتنتج عادات خاصّة باللّباس والأكل والشّرب والجلوس والسّفر والسّكن... لا يمكن للطّبقة الأدنى أن تمارس عادات الأسياد، لتميّزها الطّبقيّ، ولاختلافها الاجتماعيّ والاقتصاديّ؛ لكنّها تتقاطع معها في بعض الحالات، وخاصّة في المجتمعات الإسلاميّة، حيث تتقارب العادات والتّقاليد بحكم الدّين، فتصبح هذه العادات حكرا على طبقة الأسياد، وتقوم طبقة الهامش بخلق عادات تلائم طريقة عيشها وأوضاعها الاقتصاديّة)[63]، ولهذا كان ظهور الصّعلكة مؤذّنا

---

[62] - أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط 1، 1989، ص: 91، 92.

[63] - عبد الرّحمن تيبرماسين والباح دليلة: المركز والهامش، مفهومه أنواعه جذوره، مجلّة قراءات، مجلّد 4، عدد 01، ص: 299.

بنشوء طبقة اجتماعيّة جديدة، تتوفّر على كلّ محدّدات الطّبقة بالمفهوم الاجتماعيّ، وتلا ذلك ظهور مواصفات فنّيّة خاصّة بهذه الطّبقة التي ارتبط اسمها بالشّعر والفروسيّة.

ارتبط الطّلل في الشّعر العربيّ الجاهليّ بدلالات فنّيّة عدّة، ولكنّه كظاهرة اجتماعيّة مرتبطة بالمكان، فإنّه متعلّق بالقبيلة، وبتنقّلاتها وارتحالاتها المستمرّة عن المكان. لم تكن مغادرة المكان اختيارا لجأت إليه القبيلة. كان المكان قاسيا على ساكنيه، يرحب بهم متى شاء، ويدفعهم إلى المغادرة متى شاء، وقد ساندته في ذلك ظروف السّياسة والمجتمع، فتعوّد الفرد على التّهيّؤ للارتحال، فلم يفكّر في استبدال خيمته بسكن يحقّق له الاستقرار.

المكان / الطّلل هنا معادل للوطن، ومعادل كذلك للتّاريخ، ولذا يمكن القول إنّ العربيّ في الجاهليّة لم ينعم بوطن معلوم الحدود، يتذكّر التّاريخ، وينقل الذّكريات للأجيال. كان التّاريخ وذاكرته مشتّتيْن، مثلما كان المكان مشتّتا، وانتقل التّشتّت إلى الفرد، فلم يستطع فعل شيئ سوى البكاء؛ (الطّلل تقليد فنّيّ جاهليّ، يبدو فيه المكان ممزّقا مندثرا، مرتدّا للماضي المدمّر للعالم، يبكي فيه الشّاعر مستعيدا ذكرياته)[64]. البكاء على الطّلل هو بكاء، ليس على ضياع المكان، ولكنّه بكاء على التّاريخ والذّكريات، إنّه الآن مَجْمَعُ النّقيضيْن: العجز عن صناعة الألفة والفرح بلقاء الأهل والأحبّة، والقدرة على بعث التّاريخ الجميل، وإحياء الذّكريات، وبقدر ما تمثّل مواجهة الطّلل قمّة اليأس والإحباط، فهي تستطيع على الأقل، وللحظات مقرونة بالدّموع، إحياء ماضٍ فيه الكثير من الرّضى المصبوغ بالحنين.

الطّلل / المكان بالنّسبة للصّعلوك يرتبط بتاريخ يحاول محوَه من ذاكرته، لأنّه تاريخ مرتبط - حتّى تاريخ تمرّده - بالقهر والظّلم والمعاناة. لقد تمرّد الصّعلوك لمحوِ تاريخٍ ومحاولةِ استبداله بتاريخٍ جديدٍ. كان التّمرّد كفعل طارئ في حياة الصّعلوك قرارا يهدف إلى تغيير جذريّ لكلّ ما يرتبط به، بداية بنفسه هو؛ وأوّل تغيير جسّده على أرض الواقع هو اقتناعه بأنّه قد تغيّر، فجاءت قراراته بعد ذلك كلّها دالّة على ذلك. لا يمكن للطّلل باعتباره رمزا للتّاريخ والذّكريات أن يُشغل بال الصّعلوك، فكان أن تخلّى عنه طواعية، مثلما تخلّى عن كلّ رموز الهوان القديمة، إنّ (عالم الصّعاليك جديد، يتطلّع نحو المستقبل، لا تربطه بالماضي رابطة، حيث لا يملكون شيئا، جلّ مالهم حسام)[65]، ويؤكّد لجوؤهم إلى الفروسيّة والقتال أنّهم لن يهادنوا أحدا حتّى يحقّقوا ما تمرّدوا من أجله، وما دام الطّلل ظاهرة من ظواهر التّاريخ القديم، فقد تخلّى عنه الصّعاليك حتّى في شعرهم، لأنّه مُحَمَّلٌ دائما بالذّكريات، (إنّ انسحاب شعر الصّعاليك من ساحة الأطلال، ومن رنّة التّصريع، إعلانا للاحتجاج وإظهارا للقهر المسلّط على مجتمعهم عبر القوانين التي لم تَرُقْ لهم بعد أن قذفتهم إلى قاع الهرم الاجتماعيّ، فانتهكوا الأعراف الاجتماعيّة وأهدروا بعض

---

[64] - محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 172.

[65] - محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 172.

الرّموز الفنّيّة، وأبقوا على خصائص الشّعر الجماليّة كالموسيقى بنوعيها الدّاخليّة والخارجيّة، تمريرا لخطابهم وإيصالا لصوتهم بقصدية الإمتاع والإقناع)[66].

لا يمثّل تخلّي الصّعاليك عن الطّلل كمكان، التّخلّي عن المكان كلّه. التّخلّي عن الطّلل هو تخلٍّ عن رموزه ودلالاته الشّائعة، هو تخلٍّ عمّا درج عليه الشّعراء في افتتاح قصائدهم، كعلامة مميّزة بين أبناء القبيلة الذّائبين فيها (أصحاب الطّلل)، والرّافضين لها، الباحثين عن وطن آخر (الصّعاليك). كما أنّ المكان قد أصبح عند الصّعاليك أكثر شساعة، لا تقيّده الحدود. إنّ حدود القبيلة جزء من قانونها الذي تمرّدوا عليه، فلم يعترفوا به هو كذلك. أصبحت الأرض كلّها ملكا لهم، ما داموا في كلّ مكان يُغيرون ويقتلون ويغنمون، وبذلك فقد تحوّل المكان من كونه خاصّا (الطّلل) إلى كونه عامّا، وتحولّت الصّحراء كلّها إلى ميدان لبطولتهم، يملكونه بسيوفهم.

ومثلما تخلّى الشّاعر الصّعلوك عن المقدّمة الطّلليّة، فقد تخلّى أيضا عن المقدّمة الغزليّة، بما توحي به من اليسر في العيش، والتّفرّغ للّهو، والبحث عن الملذّات، والتّشهير بنساء القبيلة، و(استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه "الأدب الفروسيّ في شعر الصّعاليك")[67]، لأنّ الفروسيّة في المقابل هي أساس وجود الصّعاليك، وبفضلها استطاعوا (الخروج إلى الفيافي والقفار بحثا عن مجتمع بديل عادل، حيث يستردّون فيه حقوقهم المهضومة وحرّيّاتهم المنهوبة)[68]، ومثلما كانت المقدّمة الغزليّة تصويرا لشاعر القبيلة، فإنّنا في مقدّمة "الأدب الفروسيّ" واجدون الصّعاليك وحدهم، لأنّ موضوعها يوميّاتهم، وبطولاتهم، بما تهدف إليه من نهب وسلب واعتداء، وما يتخلّل ذلك من كرٍّ وفرٍّ وعدوٍ وهروبٍ، وبذلك فقد (كانوا أوّل من كسر بنية القصيدة، كما خلا شعرهم من المدح والطّول، فانتهجوا شعرا جديدا)[69].

وممّا يميّز شعر الصّعاليك كثرة (الألفاظ الغريبة والنّادرة في شعرهم)، فقد أكّد الدّرسون منذ القديم أنّ اللّغة تلين بالحضارة والتّمدّن، فكلّما اقترب الإنسان من المدنيّة رقّت لغته ولانت، وفي المقابل، فإن الحياة بعيدا عن المدنيّة، في ظروف طبيعيّة وجغرافيّة قاسية تجعل طباع الفرد ولغته تميل إلى الخشونة، والأمر طبيعيّ؛ لأنّ اللّغة أداة تعبير عن المكان وكلّ ما يساهم في تشكيله، حتّى الإنسان نفسه. عاش الصّعلوك اختيارا على هامش كلّ شيء: الوحدة – باستثناء أصحابه من الصّعاليك – مقابل أفراد القبيلة، والفيافي والوديان مقابل مضارب القبيلة، ومصاحبة الحيوان مقابل مصاحبة البشر، هذه الاختيارات لا تساهم بحال في تطوير اللّغة وتليينها، الأمر الذي يفسّر خشونة لغتهم وغرابتها، مقابل لغة غيرهم من الشّعراء، حتّى في العصر الجاهلي؛ عصر الفصاحة والصّفاء، وعليه، يجد الباحث في شعرهم (ألفاظاً لم تذكرها

---

[66] - محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 174.

[67] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 341.

[68] - محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 174.

[69] - الاغتراب في شعر الصعاليك، سعدية حسين البرغثي، مجلة الثقافة والتنمية، العدد 50، نوفمبر 2011، ص: 121.

المعجمات اللّغوية القديمة ، يمكن، عن طريق استدراكها وغيرها، ثمّ تأصيلها، بناء معجم موسوعيّ للّغة العربيّة، كما تبيّن أنّهم كانوا يقصدون إلى الدّلالات الحقيقيّة غالباً، لأنّهم يطلبون الوضوح، فهم طرقوا أموراً واقعيّة ومحسوسة)[70]، فلغتهم إذن، قادرة على أنْ تبني معجما خاصّا بهم يُسهم في معجم موسوعيّ للّغة العربيّة، والمميّز أيضا للغتهم أنّها لغة (واقعيّة)، تتعامل مع الأشياء بواقعيّة ووضوح، ولذا فقد كانوا يوظّفون لغتهم قاصدين منها دلالاتها الحقيقيّة غالبا، بسبب واقعيّتهم، هذه الواقعيّة التي تجعل شعرهم وصفا مباشرا ليوميّاتهم.

ويستمرّ شعر الصّعاليك في صنع التّفرّد والتّميّز عن شعر القبيلة، دليلا على تميّز أصحابه على سواهم، فكان (شعر مقطوعات، وقد ملنا في تعليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصّعاليك نفسها، تلك الحياة القلقة التي لا تكاد تَفْرُغ للفنّ من حيث هو فنّ، يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده)[71]، وربّما كان ذلك – إمعانا في واقعيّته – صورة عن السّرعة التي ميّزت يوميّاتهم، المتوزّعة بدورها بين الإغارة والهروب، والاختفاء... إنّ الشّعر يزداد تعبيرا عن صاحبه كلّما كان صورةً لصاحبه، وكونُ شعرِهِم شعرَ مقطوعاتٍ يوكّد توجّهَهُمْ إلى ذواتهم وما يرتبط بها، لأنّهم قرّروا يوم تمرّدوا أن يكونوا مركزًا للعالم، ويجعلوا غيرهم هامشا له. (ثمّ لاحظنا ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوحدة الموضوعيّة، ورأينا أنّ أكثر مقطوعات شعر الصّعاليك وقصائده تقبل العناوين، بل إنّ مطوّلاته – رغم تعدّد أغراضها – نستطيع أن نردّها إلى أصل موضوعيّ واحد، فليس التّعدّد هنا تعدّدا في الموضوع، وإنّما هو تفرّع في أغراض الموضوع الواحد، ورأينا مع ذلك أنّ هناك طائفة قليلة جدّا من قصائد شعر الصّعاليك لا تخضع لهذه الظّاهرة)[72]، وهذه ميزة أخرى تُحسب لشعر الصّعاليك؛ ففي حين توفّرت لشاعر القبيلة – أكثر منهم – الظّروف التي يمكن أن تبعده عن (التّشتّت) في قصيدته – كانت قصائد زهير بن أبي سلمى تسمّى الحوليّات لأنّه كان يقضي الحَوْلَ كاملا قارئا ومنقّحا قصيدتَه حتّى يُخرجها للنّاس في أجمل صورة – ولكنْ مع ذلك، فمن الانتقادات المهمّة التي وجّهها النّقد للمعلّقات الجاهليّة (التّفكّك) في البناء، بسبب كثرة الأغراض المجتمعة دون مبرّر، ثمّ كون البيت المفرد، لا الموضوع، هو الذي يملك قيادة القصيدة. في المقابل، ورغم تشتّت ساعات يوم الصّعلوك، بين ما يحقّق له أمنه وسلامته، وبين ما يُسكت جوعه، إلاّ أنّ صفة التّشتّت لم تعرف الطّريق إلى شعره، وتبرير ذلك أنّه يقول الشّعر في الحادثة الواحدة، فقط وفقط إذا كانت حقّا تجربة تستحقّ أن تدخل عالم الشّعر، وبانتهاء القصيدة ينتقل الصّعلوك إلى ممارسة متطلّبات حياته، وما أكثرها.

---

[70] - وائل عبد الأمير خليل الحربي: لغة الشعر عند الصعاليك قبل الإسلام دراسة لغوية أسلوبية، كلية التربية - جامعة بابل، 2003، ص: 360.

[71] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 341.

[72] - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 341.

نماذج من شعر الشّنفرى:

قال في التصعلك وقلة المبالاة بمصير الجسد بعد الموت:

فلا تقبُروني فإنّ قبري محرّمٌ عليكم، ولكن أبشري أمَّ عامرِ[73]
إذا احتملوا رأسي، وفي الرّأس أكثري، وغُودرَ عندَ الملتقى ثَمَّ سائري[74]
هنالك لا أرجو حياةً تسرُّني سجيسَ الليالي مُبْسَلاً بالجرائرِ[75]

وله قصيدة تائية اختارها المفضل الضبّي في "المفضّليّات"[76] فيها غزل وحماسة، منها في الغزل:

لقد أعجبتني، لا سَقوطا قناعُها إذا ما مشتْ، ولا بذات تلفُّتِ
تبيتُ بُعيد النّوم تُهدي غَبوقها لجارتها، إذا الهديّةُ قلَّتِ[77]
تحِلُّ بمنجاة من اللّوم بيتَها، إذا ما بيوتٌ بالمذمّةِ حُلّتِ[78]
كأنّ لها في الأرضِ نِسْيًا تقصُّه على أمّها، وإنْ تُكلِّمْك تَبْلَتِ[79]
أميمةُ لا يُخزي نثاها حليلَها، إذا ذُكرَ النّسوانُ عفّتْ وجلَّتِ[80]
إذا هو أمسى، آبَ قُرّةَ عينه مآبَ السّعيد، لمْ يسلْ أين ظلَّتِ
فدقّتْ وجلّتْ، واسبكرّتْ وأُكملتْ، فلو جُنّ إنسانٌ من الحسنِ جُنّتِ[81]
فبتنا.. كأنَّ البيتَ حُجِّرَ فوقنا بريحانةٍ رِيحتْ عِشاءً وطُلَّتِ[82]

ومن لاميته المشهورة:

أقيموا بني أمّي، صُدُورَ مَطِيّكم فإني، إلى قومٍ سِواكم لأميلُ[83]

---

[73] - أمّ عامر: الضّبع (أبشري بأنْ تأكلي من لحمي).

[74] - عند الملتقى: في مكان المعركة.

[75] - (... سأبقى طول الدهر في عنقي الجرائم الكثيرة التي كنت قد ارتكبتها في حياتي).

[76] - المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط 2، دار المعارف، مصر، 1952، ص: 109.

[77] - الغبوق: ما يُشرب من الخمرة بالعشي.

[78] - تحلّ بيتها: تَقَرُّ فيه، لا تخرج منه كثيرا. بمنجاة من اللّوم: بعيدة عن كلّ عمل يمكن أنْ يجلب اللوم عليها.

[79] - النّسيّ: الشيء المنسيّ والمفقود، تقصّه: تتبع أثره لتجده، على أضمّها (بفتح الهمزة): على قصدها، لا تلتفت إلى شيء آخر، بلتْ: إذا سارت خفضت رأسها حياء كأنها تطلب شيئا ضاع منها ولم تتلفتْ.

[80] - نثاها (كرهها لزوجها، كلامها عن زوجها) لا يخزيه، ولا يعيبه، وإذا ذُكرت في النساء كانت عفيفة جليلة محترمة. الحليل: الزوج.

[81] - دقّت: كان قوامها نحيلا. جلّت: كان جسمها عظيما وقامتها مديدة. اسبكرّتْ: طالت وامتدّتْ، حسُنت مشيتها ذهابا وإيابا. أكملت: كانت تامة الخلقة.

[82] - بتنا: قضينا الليل. حجّر فوقنا: استدار بسقف البيت الذي نسكنه، أو أحاط بنا. الريحان: كل نبات طيب الرائحة. ريحتْ: أصابتها الريح. طلت: أصابها مطر خفيف (إذا حرّكت الريح الأزهار انتشرت رائحة تلك الأزهار بسرعة وبمقدار أكبر؛ وإذا أصابها المطر كانت أنضر وأكثر عطرا).

[83] - إقامة الصدور: كناية عن التهيؤ للرحيل.

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ، والليلُ مقمرٌ وشُدَّت، لِطياتٍ، مطايا وأرحُلُ[84]

وفي الأرض مَنْأىً، للكريم، عن الأذى وفيها، لمن خاف القِلى، مُتعزَّلُ[85]

لَعَمْرُكَ، ما بالأرض ضيقٌ على أمرئٍ سَرَى راغباً أو راهباً، وهو يعقلُ

ولي، دونكم، أهلونَ: سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زُهْلُول وَعَرفاءُ أجْيلُ[86]

هم الأهلُ، لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جَرَّ، يُخْذَلُ[87]

وكلٌّ أبيٌّ، باسلٌ، غير أنني إذا عرضت أولى الطرائدِ أبسلُ[88]

وإن مُدَّتْ الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم، إذ أجْشَعُ القومِ أعجلُ

وما ذاك إلا بَسْطَةٌ عن تفضلٍ عَلَيهِم، وكان الأفضلَ المتفضِّلُ[89]

وإني كفاني فَقْدُ من ليس جازياً بِحُسنى، ولا في قربه مُتَعَلَّلُ[90]

ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيَّعٌ، وأبيضُ إصليتٌ، وصفراءُ عيطلُ[91]

هَتوفٌ، من المُلْسِ المُتُونِ، يزينها رصائعُ قد نيطت إليها، ومِحْمَلُ[92]

إذا زلّ عنها السهمُ، حَنَّتْ كأنها مُرَزَّأةٌ، ثكلى، ترِنُ وتُعْوِلُ[93]

ولستُ بمهيافٍ، يُعَشِّى سَوامهُ مُجَدَعَةً سُقبانها، وهي بُهَّلُ

ولا جبأ أكهى مُرِبٍّ بعرسِهِ يُطالعها في شأنه كيف يفعلُ

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ، كأن فُؤَادهُ يَظَلُّ به الكَّاءُ يعلو ويَسْفُلُ

ولا خالفِ داريَّةٍ، مُتغزِّلٍ، يروحُ ويغدو، داهناً، يتكحلُ

ولستُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيرهِ ألفَّ، إذا ما رُعْته اهتاجَ، أعزلُ

ولستُ بمحيار الظَّلامِ، إذا انتحت هدى الهوجلِ العسيفِ يهماءُ هوجَلُ

إذا الأمعزُ الصَّوَّان لاقى مناسمي تطاير منه قادحٌ ومُفَلَّلُ

أُدِيمُ مِطالَ الجوعِ حتى أُمِيتهُ وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحاً، فأذهَلُ

وأستفُّ تُرب الأرضِ كي لا يرى لهُ عَليَّ، من الطَّوْلِ، امرُؤ مُتطوِّلُ

---

[84] - حُمّت الحاجات: قُدّرت ودُبّرت. والطِّيّة بالكسر: الحاجة أو النّيّة المدبّرة.

[85] - المنآى: المكان البعيد، القلى: البغض والكراهيّة. متعزّل: مكان العزلة عن النّاس.

[86] - أهلون: جمع أهل. السّيد بكسر السّين: الذئب. العملّس: الذئب القوي السريع. الأرقط: النّمر الذي في جلده بياض وسواد. الزّهلول: الأملس. العرفاء: الضّبع الطويلة العرف. جيأل: اسم للضّبع، والأصل: جيأل عرفاء.

[87] - ذائع: منتشر. جرّ جريرة: جنى جناية. خذله: تخلى عن نصرته.

[88] - الأبيّ: الذي يأبى الذلّ والظلم. الباسل: الشجاع البطل. الطرائد: جمع طريدة، وهي الفريسة التي تُطارد.

[89] - البسطة: السّعة. التفضل: هو ادّعاء الفضل على الغير.

[90] - التعلل: التلهّي، وتعلل بالشيء اليسير: اكتفى به.

[91] - مشيع: شجاع كأنه في شيعة وجماعة تنصره. الأبيض: السيف. إصليت: صقّيل أو مصلت بمعنى مسلول من غمده. الصفراء: القوس، وعيطل: طويلة العنق.

[92] - الهتف: الصوت المنغم، أعني صوتا مميّزا. والملاسة: ضد الخشونة. والمتن: الصلب وهو الظهر. الرصائع: جمع رصيعة، وهي ما يُرصع به، أيْ يُحلّى به. نيطت: عُلّقت. المحمل: ما يُعلق به السيف أو القوس. والبيت وصف لقوسه.

[93] - زلّ السهم: خرج منها. الحنين: صوت معيّن. حنّت: صوّتت بهذا الصوت. مرزّأة: كثيرة الرزايا والمصائب. عجلى: مسرعة. ترنّ: تصوّت برنين. تعول: ترفع صوتها بالبكاء والعويل.

المصادر والمراجع:

1) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، **ج 18**، ص: 215، البغدادي: خزانة الأدب، ج 3، ص: 405.
2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، **ج 21**، ص: 175.
3) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، **ج 22**، ص: 293.
4) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، **ج 3**، ص: 73.
5) أبو علي القالي: الأمالي، ج 2، دار الكتب المصرية، 1926، ص: 121، 123.
6) أبو علي القالي: الأمالي، ج 2، ص: 208.
7) أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط 1، 1989، ص: 91.
8) الاغتراب في شعر الصعاليك، سعدية حسين البرغثي، مجلة الثقافة والتنمية، العدد 50، نوفمبر 2011، ص: 121.
9) البغدادي: خزانة الأدب، ج 3، ص: 532.
10) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، دار الهلال، ص: 141.
11) حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2001، ص: 181.
12) ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، لبنان، ص: 41.
13) رسائل الخوارزمي، ص: 141، 142.
14) الشعر الأموي بين الفن والسلطان، ص: 376.
15) الشّنفرى: الدّيوان، جمع وتحقيق وشرح اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ ط 2، 1996، ص: 11، 12.
16) ظاهرة الخوف في أشعار الصعاليك، ص: 80.
17) عبد الرّحمن تيبرماسين والباح دليلة: المركز والهامش، مفهومه أنواعه جذوره، مجلّة قراءات، مجلّد 4، عدد 01، ص: 300.
18) عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1997، ج 3، ص: 90، 91.
19) عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1997، ج 3، ص: 185، 186، وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج 2، ص: 126.
20) عبد الله العنزي: رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجريّ، رسالة دكتوراه، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1431 / 1432هـ، ص: 31.

21)عروة بن الورد أمير الصّعاليك: الدّيوان، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1998، ص: 79.
22)عماد عويد العبودي: شعر الجوع في الأدب العربي العصر المملوكي أنموذجا، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مجلد: 38، عدد: 1: 2013، ص: 5 – 31.
23)عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأمويّة، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 102.
24)غازي طليمات، عرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، دار الإرشاد، ط 1، حمص، 1992، ص: 226.
25)لسان العرب مادة صعلك.
26)محمد الصادق بروان: عودة إلى الخطاب الشّعريّ لدى صعاليك ما قبل الإسلام، مجلّة الخطاب، عدد 13، ص: 170.
27)المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط 2، دار المعارف، مصر، 1952، ص: 109.
28)وائل عبد الأمير خليل الحربي: لغة الشعر عند الصعاليك قبل الإسلام دراسة لغوية أسلوبية، كلية التربية - جامعة بابل، 2003، ص: 360.
29)يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 3، ص: 22.
30)موسى ربابعة: تشكيل الخطاب الشّعريّ دراسات في الشّعر الجاهلي، دار جرير للنّشر والتّوزيع، ط 1، عمّان، الأردن، 2011.